مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTER FOR STUDIES

مراجعات كتب

الانتفاضات العربية: ما يجب أن يعرفه كل إنسان

تأليف: د. جيمز جلفين (James L. Gelvin)*

عرض: خليل جهشان**

31 يوليو/تموز 2012

Al Jazeera Centre for Studies
Tel: +974-44663454
jcforstudies@aljazeera.net
http://studies.aljazeera.net

مؤلف الكتاب

د. جيمز جلفين (James L. Gelvin) شخصية أكاديمية معروفة، يتمتع بسمعة مرموقة في مجال دراسات تاريخ الشرق الأوسط في الولايات المتحدة، وهو عضو في كلية التاريخ في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس (UCLA)، وفيها يدرس تاريخ الشرق الأوسط الحديث، وخاصة تاريخ الحركات القومية والاجتماعية والثقافية في المنطقة منذ عام 1995. بعد تخرجه من جامعة كولومبيا، وحصوله على درجتي (BA)و (MA)حصل الكاتب على درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد عام 1992. درس البروفيسور جلفين في عدة جامعات من بينها: إم. آي. تي (MIT)، وبوسطن كولدج، وهارفارد، والجامعة الأميركية في بيروت.

صدر للمؤلف عدد كبير من الكتب والمقالات أهمها كتابه المشهور، النزاع الإسرائيلي الفلسطيني: مائة سنة من الحرب، والذي نشرته مطبعة جامعة كامبردج عام 2005. ومنحت رابطة المكتبات الأميركية هذا الكتاب عام 2006 جائزة أفضل كتاب أكاديمي.

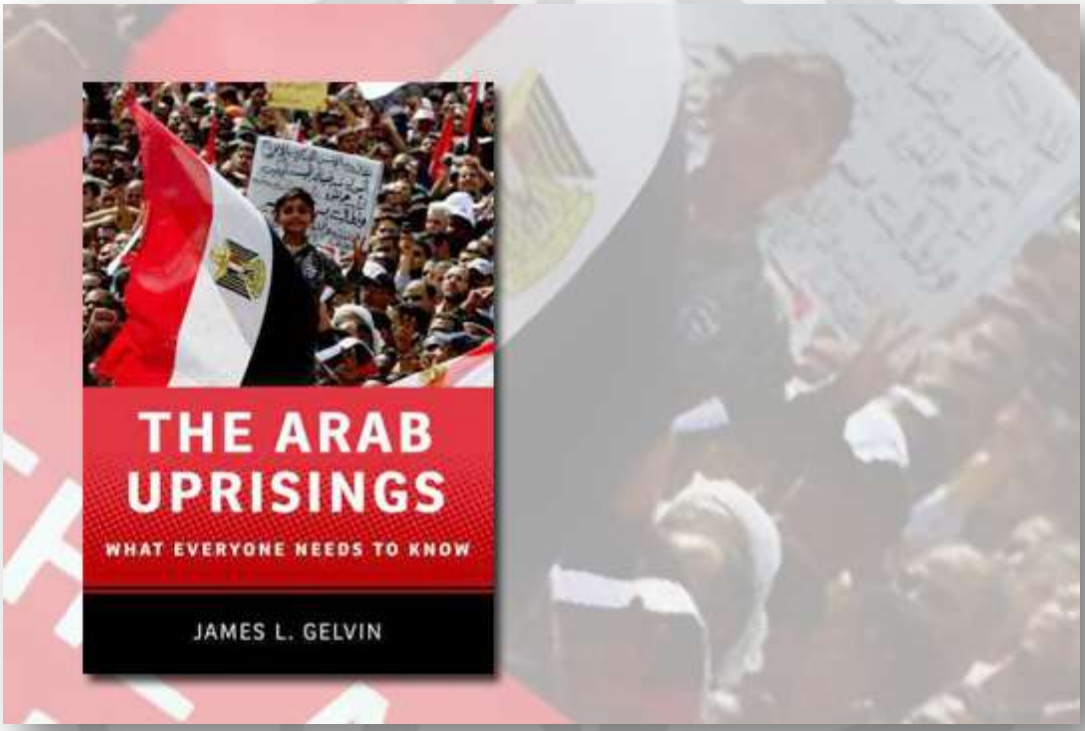

ملخص الكتاب

منذ بداية موسم الانتفاضات العربية في شهر ديسمبر/كانون أول 2010، أصدرت دور النشر الغربية، وخاصة الأميركية، عشرات الكتب الجديدة في محاولة لشرح خلفية وأهداف وإنجازات هذه الظاهرة المفاجئة التي هزت أسس عديد من الأنظمة العربية مطالبة بالحرية والديمقراطية والعدالة. وحاول الكثير من المؤلفين من المؤرخين وعلماء السياسة والاجتماع وخبراء الشرق الأوسط ملء الفراغ المعلوماتي الهائل والناجم عن هذا الحراك العربي غير المعهود عبر ترك بصماتهم الخاصة على تعريف وتفسير جميع نواحي ما توقع البعض أن يتحول إلى تسونامي التغيير السياسي والاجتماعي والاقتصادي في أنحاء العالم العربي كافة. وتطرق هؤلاء في مؤلفاتهم إلى محاولة الإجابة على الكثير من الأسئلة المتعلقة

بظاهرة ما لقب "بالربيع الغربي" عامة. ولكن قلة منهم فقط نجحوا في تزويد القارئ العام، وبخاصة الطلبة الجامعيون غير المتخصصين في شؤون الشرق الأوسط، بشرح شامل ودقيق وسهل للموضوع كما فعل البروفيسور جلفين في كتابه، "الانتفاضات العربية: ما يجب أن يعرفه كل إنسان."

يتألف الكتاب الصادر عن دار النشر التابعة لجامعة أكسفورد من ستة فصول ويقع في 185 صفحة. ويشمل الفصل الأول منها خلفية تاريخية عن العالم العربي، وعن البيئة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي هيأت التربة الخصبة للانتفاضات الشعبية التي شاهدناها خلال أقل من عامين في أنحاء مختلفة من المنطقة العربية. ويتطرق الكاتب في هذا الفصل إلى طبيعة الأنظمة العربية، والأوضاع السياسية والاقتصادية التي سادت العديد من المجتمعات العربية قبل خروج الجماهير العربية إلى الشارع، والتي ساهمت في خلق عوامل موضوعية أدت إلى انتشار مظاهر الاحتجاج والتحدي في وجه الحكومات والأنظمة السلطوية.

يركز الفصل الثاني من الكتاب على تونس ومصر حيث بدأ الحراك العربي، ويتطرق المؤلف إلى سرد أوجه التشابه والمفارقة بين البلدين، وشرح دور الأحزاب السياسية واتحادات العمال والمجموعات الإسلامية ووسائل الاتصال الحديثة في تحريك الشارع في كلا البلدين.

ثم ينتقل الكاتب في الفصل الثالث إلى بحث الأوضاع في اليمن وليبيا اللتين يصفهما "بالدولتين الضعيفتين" نتيجة ضعف المؤسسات الحكومية والبيروقراطية في البلدين مما يؤهلهما أكثر من الدول الأخرى على تحقيق تغييرات ثورية أكثر عمقا واستمرارية عما شاهدنا حتى الآن.

ويخصص المؤلف الفصل الرابع من كتابه لبحث ما يسميه "بالحالات المفاجئة" التي تضم الجزائر وسوريا حيث فاجأت الأحداث فيها أغلب الخبراء. ويسعى المؤلف في هذا الجزء من كتابه إلى تفسير نشوء وتطور الانتفاضة في سوريا كما يتطرق إلى طبيعة وردود فعل النظام السوري التي كشفت نقاط ضعفه ومصادر قوته واستمراريته في نفس الوقت. كما يشرح البروفيسور جلفين خلفية وهوية المعارضة السورية وأسباب تردد الدول الغربية في مواجهة النظام السوري كما فعلت في أقطار عربية أخرى.

ويتحدث جلفين في الفصل الخامس عن الأنظمة الملكية في العالم العربي، ويعطي القارئ نبذة تاريخية عن نشأتها وتركيبتها الديمغرافية والدينية والسياسية التي أثرت دون أي شك على أشكال موجة الاحتجاجات المختلفة في هذه الدول، وكيفية تعامل الأنظمة الملكية معها، وتأقلمها لمطالب ومتقلبات الشارع العربي.

أما الفصل السادس والأخير، فيعنى بالأسئلة التحليلية حول سياسة الولايات المتحدة تجاه الانتفاضات العربية، وتأثير الحراك العربي على سياسات الأطراف والقضايا الهامة في المنطقة بما في ذلك النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني، السياسات الإيرانية، تنظيم القاعدة، وغيرها من القضايا العالقة. ويختم المؤلف كتابه بسرد بعض الاستنتاجات التي نستطيع التوصل إليها نتيجة الحراك العربي حتى الآن، بالرغم من تحفظه كمؤرخ حول استباق الزمن في رسم صورة نهائية لنتائج وتساقطات الانتفاضات العربية على المدى البعيد.

مميزات الكتاب

من ميزات الكتاب، الأسلوب الشيق الذي تبناه الكاتب عبر تقسيمه إلى أسئلة وأجوبة قصيرة تمت بصلة مباشرة إلى موضوع البحث، مما يجعله سهلا للقراءة والفهم، وبخاصة للقارئ العام والطالب الجامعي المبتدئ الذي لا يملك خبرة وافية في موضوع تاريخ وسياسات الشرق الأوسط. ويعترف جلفين في مقدمة الكتاب أن المقابلات الصحفية والمحاضرات العديدة التي قام بها منذ بداية موجة الانتفاضات العربية شكلت أحد الدوافع الرئيسة التي أقنعته بتدوين الأسئلة والأجوبة المعنية بهذه الظاهرة، وأجبرته على إلقاء نظرة تاريخية تحليلية للحراك العربي، واتباع أسلوب المقابلة الصحفية في كتابته دون اللجوء إلى التحليل السطحي أو الإجابات السهلة.

ولا أستبعد أن يكون أسلوب المؤلف أحد الملاحظات التي قد يتخذها بعض النقاد على الكتاب في اعتبار أسلوب الأسئلة والأجوبة أسلوبا سطحيا من وجهة النظر التحليلية لا يليق بكاتب أكاديمي مرموق. ولكن، لكل كتاب جمهوره، وهذا الكتاب موجه في الأصل إلى القارئ العادي بدلا من الخبراء المتمرسين في الموضوع.

وتكمن أهمية هذا الكتاب من حيث أنه من المتوقع أن يملأ الفراغ المعلوماتي حول موضوع الحراك العربي بشكل فاعل أكثر من الكتب الأخرى الأكبر حجما والأكثر تعقيدا، خاصة في أروقة الجامعات بالنظر إلى شمولية تغطية الموضوع على جميع جوانبه، وللخبرة الوافية التي يتمتع بها المؤلف في تاريخ المنطقة بما يضفي على الكتاب بعدا تاريخيا وتحليليا شاملا.

أهم المواضيع التي يناقشها الكتاب

طرح المؤلف في كتابه حوالي تسعين سؤالا، اخترت منها ثلاثة أسئلة فقط كنموذج لطروحات وآراء البروفيسور جلفين حول الانتفاضات العربية. والحق أني لم أختر هذه الأسئلة تعسفا، وإنما للدور الهام الذي تؤديه هذه الأسئلة في توضيح نواح مختلفة للحراك العربي وخاصة في أعين القارئ الغربي.

1- لماذا تكثر الأنظمة السلطوية في العالم العربي؟

يختلف المؤلف مع كثير من زملائه الأكاديميين في الغرب الذين تطرقوا في دراساتهم إلى موضوع كثرة الأنظمة السلطوية في البلدان العربية وألقوا باللوم على الإسلام باعتباره دينا غير متوافق مع أبسط مبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان، وعلى النظام الأبوي المتبع في بنية العائلة العربية. لكن جلفين يرفض هذا التفسير ويصر على أن الإسلام ليس أقل أو أكثر توافقا مع الديمقراطية من المسيحية أو اليهودية وأن الدولة ليست مجرد نموذج موسع للعائلة.

ورغم أن المؤلف يرفض أي تفسير بسيط ووحيد لهذه الظاهرة المعقدة، فإنه يعزو النزعة السلطوية في العالم العربي، أولا، إلى هيمنة الدول العربية، أكثر من أية مجموعة دول أخرى في العالم، على مصادرها الوطنية مما يجعلها تتصرف باعتبارها دولا ريعية، لأنها تستمد جزءا كبيرا من إيراداتها الوطنية من الإيجارات، مثل الاعتماد على رسوم العبور في قناة السويس، أو المساعدات الخارجية الأميركية، أو بيع مواردها الطبيعية كالنفط. وقد أدى احتكار الحكومات العربية للمصادر الوطنية وسوء أداء هذه الحكومات في تلبية الحد الأدنى من احتياجات المواطن العادي في مجال التنمية الإنسانية

والاقتصادية والسياسية والاجتماعية إلى خلق نقص شديد في المجتمعات العربية في مجال الحريات والحقوق الأساسية ودور المرأة واكتساب المعرفة، كما أثبتت تقارير التنمية الإنسانية العربية. وهذا ساهم في تفجر التناقضات العربية الداخلية، واندلاع الحراك العربي، والمطالبة بدور مباشر وفاعل للمواطن العادي في تقرير مستقبله واستعادة كرامته وحريته.

أما السبب الثاني لانتشار ظاهرة الأنظمة السلطوية في العالم العربي، حسب رأي الكاتب، فيعود إلى السياسة الخارجية الأميركية في الشرق الأوسط منذ الحرب العالمية الثانية، والتي اعتمدت مباشرة على الأنظمة السلطوية التي شجعتها لخدمة المصالح الأميركية، وأهمها تزويد الغرب باحتياجاته النفطية، والحد من تأثير الاتحاد السوفياتي، والحفاظ على استقلال وسيادة إسرائيل، وحماية الطرق التجارية بين أميركا وأوروبا وآسيا، وتشجيع الدول "الآمنة" والمؤيدة للغرب في المنطقة. ونود الإشارة هنا إلى أن الولايات المتحدة ليست أول من ارتكب هذه الأخطاء فقد قامت بريطانيا وفرنسا من قبلها بالدور نفسه.

2- لماذا تعاملت الدول الأجنبية بقفاز حريري مع بشار الأسد؟

لقد طرح كثير من المحللين والأكاديميين والإعلاميين هذا السؤال الهام منذ بدء الثورة ضد النظام السوري، وازداد السؤال أهمية مع تدهور الوضع الأمني والإنساني في سوريا دون التوصل إلى إجابة واضحة وصريحة عن أسباب تذبذب الموقف الدولي، وخاصة الأميركي، من سياسة القمع والعنف التي تبناها نظام الأسد ضد الانتفاضة السورية. ويبين المؤلف الفرق الشاسع في موقف الدول الغربية الحازم تجاه معمر القذافي في ليبيا، من ناحية، وموقفها اللين تجاه بشار الأسد، من الناحية الأخرى، عندما أصر الغرب على رحيل القذافي قبل وخلال قصف قوات الناتو على الأراضي الليبية بينما اكتفت واشنطن وحلفاؤها بمطالبة الأسد "بكل وداعة" على تبني الخطوات الإصلاحية أو التنحي جانبا.

ويؤكد المؤلف في إجابته الصريحة عن هذا السؤال بأن جميع الأطراف الدولية حاولت منذ البداية تفادي حالة التشرذم وعدم الاستقرار التي قد تنجم عن انهيار النظام، والتي قد تؤدي إلى نزاعات طائفية وإثنية بين السنة والشيعة والأكراد وغيرهم. واعتقد المسؤولون الأميركيون، حسب تحليل البروفيسور جلفين، أن انهيار النظام قد يقود إلى تسلم الإخوان المسلمين السلطة، وتسرب هذه الصراعات الطائفية عبر الحدود السورية إلى دول مجاورة مثل لبنان وتركيا والعراق، وهي جميعا في غنى تام عن مثل هذه التطورات. كما لم يغفل الكاتب عن ذكر موقف إسرائيل من سوريا، وتخوفها من انهيار النظام في دمشق، وكذلك من البدائل التي قد تتسلم السلطة بعد انهيار النظام. ويذكر جلفين أن السفير الإسرائيلي في واشنطن مايكل أورين اضطر أن ينكر علنا أنه سعى في تلك الفترة إلى تعبئة الدعم الأميركي لصالح بقاء بشار الأسد في السلطة.

3- ما هي الاستنتاجات التي يمكننا التوصل إليها حول الانتفاضات العربية حتى الآن؟

يؤكد البروفيسور جلفين أن من السابق لأوانه الحديث عن الآثار البعيدة على الحراك العربي والنتائج المتوقعة منها، لأننا ما زلنا في مواجهة تطورات كثيرة وسريعة لم تنته بعد. فالثورة الفرنسية، على سبيل المثال، بدأت في عام 1789 واستمرت حتى تتويج نابليون إمبراطورا عام 1799. كذلك هو الحال بالنسبة للثورة الأميركية التي دامت بين عام 1776 و1783 على الأقل. ولذلك يصعب عليه، باعتباره مؤرخا، أن يقدم للقارئ في هذه المرحلة المبكرة لائحة مفصلة ونهائية

عن إنجازات ونتائج الانتفاضات العربية. لكن الكاتب لا يتردد في سرد الدروس أو العبر الرئيسة التي لقنته إياها هذه الانتفاضات وهي:

1. الانتفاضات هي أحداث غير عادية، ولذلك من المستحيل التنبؤ بها.
2. ليس هناك أي دليل على أن أشكال التواصل الاجتماعي الجديدة قد لعبت دورا أكبر في الانتفاضات الحالية من الدور الذى أدته المطبعة والتلغراف في الانتفاضات السابقة.
3. إن مصدر القوة أو الضعف الداخلي لأي دولة بالنسبة لاستقلالية مؤسساتها يلعب دورا هاما في تحديد المسيرة التي تتخذها أي انتفاضة.
4. يبدو واضحا أن العالم العربي لم يكن في معزل عن تطور قواعد حقوق الإنسان منذ سني السبعينات.
5. الثقافة والدين لم يمنعا ظهور التطلعات الديمقراطية في العالم العربي.
6. إن العفوية والتنوعية والتنظيم الفضفاض وعدم وجود قيادات بارزة في الانتفاضات أصبحت مصدر قوتها وضعفها في نفس الوقت.
7. تأييد الجيش لأي انتفاضة لا يعتبر نعمة بالضرورة.
8. إن السياسات الاقتصادية النيوليبرالية (الليبرالية الجديدة) المتبعة في الدول العربية والتي أثارت غضب الجماهير في المنطقة العربية بأكملها لن تنجح في إرضائها الآن.
9. وبغض النظر عن التصريحات الخطابية، ما زالت السياسة الأميركية الخارجية تتمسك بخدمة مصالحها، أي أنها تتحلى بالنفعية.

(*) James L. Gelvin. The Arab Uprisings: What Everyone Needs to Know. Oxford: Oxford University Press, 2012, 185 pages. $16.95, paperback.

(**) خليل جهشان، محاضر في الدراسات الدولية واللغات الأجنبية في جامعة ببرداين في الولايات المتحدة الأميركية.

انتهى